المنهج العلميّ في البحث النّحوي بين القدماء والمحدثين العرب سيبويه وتمام حسان أنموذجا

The Scientific Approach in Grammar Research among the Ancient and the Modernist Arab Grammarians Sibawayh and Tammam Hassan as case study

أ.علي بن فتاشة alifattacha@gmail.com
أ.د.عبد المجيد عيساني aissani-60@hotmail.com
جامعة قاصدي مرباح – ورقلة/ الجزائر

مُلَخَّصُ البَحْثِ

لا يخلو أيّ علم من منهج يسير عليه ويتقيّد به؛ ويكون له طريقاً يهتدي به إلى حقائق الأشياء ومكنوناتها، والبحوث اللغوية ليست مستثناة من بقية العلوم، حيث أنّه ما نشطت اللسانيات الغربية في القرن العشرين إلاّ لالتزامها بالمناهج العلمية، وما عِيب النّحو العربي القديم إلاّ بأنّ رجاله حادوا عن المنهج اللغوي العلمي السّليم؛ وهو الأمر الذي حذا بي إلى محاولة تلمّس ملامح المنهج العلمي لدى النّحاة القدماء من جهة، ولدى المحدثين من جهة أخرى، مُتّخذاً من أبرز أعلامهما (سيبويه وتمام) أنموذجاً للمقارنة.

الكلمات المفتاحية: المنهج، النّحو، القدماء، المحدثون، العلمي، اللسانيات، سيبويه، تمام.

Abstract :

No science is free from a specific approach which must follow and depend on and which constitutes and truck that takes him to the realities of things and their constituents. The linguistic researches do not constitute an exception; hence, the development of the Western linguistics in the twentieth century was due to the dependence on scientific approaches. The defect of the Arabic traditional grammar manifested itself in the lack of applying a specific scientific approach by its founders. This is what encourages me to find the notion of scientific approach of the ancient grammarians on one hand, and in the modern ones, on the other, taking as a case study some of its prominent leaders (Sibawaih and Tamam).

Key words: approach, grammar, ancients, modernists, scientific, linguistics, Sibawayh, Tammam

تمهيد: من الأسباب التي دفعتني إلى طرح هذا الموضوع هو أنّ النّحو العربي في القرن العشرين تعرّض إلى هجوم عنيف، (سواء من ناحية لغته الفصحى، أو من ناحية قواعده ومنهجه) وقد مرّ هذا الهجوم بثلاثة مراحل أساسية؛ وهي:

المرحلة الأولى بدأت مع نهاية القرن التاسع عشر، واستمرت الى منتصف القرن العشرين، وبدأها عدد من المستشرقين (على رأسهم البريطاني: ويليام ويلكوكس (William Willcocks)، وفيها شُنّ هجوم على الفصحى ودُعيَ إلى العامية، وقد تأثّر بهؤلاء عدد من العرب، كقاسم أمين وسلامة موسى وإبراهيم أنيس.

أمّا **المرحلة الثانية** فقد بدأت مع مطلع القرن العشرين وفيها عيبت القواعد النّحوية التقليدية، وقُدّمت في هذا الإطار اقتراحات لتبسيطها، وقد مسّت هذه الاقتراحات حتى أصول العربية الفصحى؛ مثل أن نسكّن أواخر الكلمات، أو نحذف بعض الأبواب النّحوية؛ كأن يرفع الاسم والخبر في جميع الحالات، وينصب جمع المؤنّث السّالم بالفتحة، أو أن ننصب المنادى المعرب مطلقا...إلخ.

و**المرحلة الثالثة** من الهجوم على "النّحو العربي" بدأت مع نهاية ثلاثينات القرن العشرين، وفيها هوجم النّحو العربي من ناحية **المنهج** الذي اعتمد في نشأته وتكوينه؛ وهذا كلّه تحت تأثير عوامل منها: عودة المبعوثين من الخارج خصوصا المتشبّعين بالمنهج الوصفي الغربي، كإبراهيم أنيس وعبد الرحمن أيوب وتمام حسان، ومنها أنّه في هذه الفترة نُشِر واشتهرا كتابان؛ أحدهما مؤلّفه من المحدثين وهو كتاب (إحياء النّحو) لإبراهيم مصطفى والذي نشره سنة 1937م، وآخر مؤلفه من القدماء وهو كتاب (الرّد على النّحاة) لابن مضاء القرطبي، الذي حققه ونشره شوقي ضيف سنة 1947.

إذن فالمبعوثون المتشبعون بالمنهج الوصفي السوسيري، وكِتابَيْ (إحياء النّحو/والرّد على النّحاة) حَوّلا الهجوم من الهجوم على الفصحى وقواعدها إلى الهجوم على منهج النّحاة القدامى؛ فبدأت تظهر مصطلحات لها علاقة بالمناهج اللغوية، وذلك (كالمعيارية، والوصفية، واللغة المنطوقة والمكتوبة، والتعليل والتأويل، والمنطق، والمنهج العلمي، وغير العلمي...إلخ).

ويلاحَظ خلال هذه المرحلة أنّ المُحدثين بدأوا يُسقطون نقد الأوربيين لنحوهم القديم (وهو النّحو الإغريقي المبني على المنطق الأرسطي، واللسانيات المقارنة والتاريخية فيما بعد) بدأوا يسقطون كل تلك الانتقادات على منهج النّحاة العرب القدامى ككل؛ بدون تمييز بين النّحاة المتقدّمين أمثال الخليل وسيبويه وابن جني والجرجاني، وبين النّحاة المتأخرين من أصحاب الشّروح والمنظومات النّحوية.

ويمكن أن نلخّص هذا الهجوم في ثلاث نقاط أساسية هي[1]:

1–أنّ النّحو العربي في نشأته **متأثر بالمنطق الأرسطي** العقلي؛ وكان له أثر سلبي من ناحية أنّه هو الذي أوجد نظرية العامل، وانبنى عليه التقسيم الثلاثي غير الواقعي للكلمات العربية، ومنه كذلك تعليل إعراب الفعل المضارع الخيالي البعيد عن واقع اللغة...الخ.

2–**معيارية النّحو العربيّ**؛ وهي فكرة أوّل ما ظهرت كانت في خمسينات القرن العشرين مع الباحث "تمام حسان" وخصوصا في كتابه "اللغة بين المعيارية والوصفية"؛ يقول تمام حسان: «إنّ أساس الشّكوى هو تغلّب المعيارية في منهج حقّه أن يعتمد على الوصف أوّلاً وأخيرا»[2]. إنّ مكمن العيب في "المعيارية" حسب هؤلاء الباحثين؛ هو أنّ النّحاة القدماء حين انتقلوا من مرحلة تدوين اللغة وجمعها إلى مرحلة التقعيد، استهوتهم القواعد التي وضعوها، وحكموا على الشّواهد –التي خرجت عليها ولم تجد لها مكاناً في قوالبهم– بالتّأويل والتّخريج في تكلّف وتعسّف، فإذا لم يستطيعوا تأويلاً أو تخريجاً، حكموا على هذا الاستعمال بالشّذوذ ورأوا وجوب الانصراف عنه واهماله، وعدّوا بعض أنماط هذه المادة نفسها غير صالح للبحث النّحويّ واللغوي، فيما تتمتع أنماط أخرى بصلاحية أن تكون جزءا من هذا البحث.

3– **الخلط بين المستويات اللغوية:** وهما مستويان؛ المستوى اللهجي، والمستوى الزمني؛ يقول عبد الرّحمن أيوب عن الخلط في المستوى الأول أنّ النّحاة «ارتكبوا خطأً منهجياً حين كانوا يخرجون للبادية لجمع اللغة، فيخلطون بين ما يأخذون عن قبيلة وما يأخذون عن قبيلة أخرى، أو يخلطون بين ما يقوله الحضر وما يقوله أهل البادية، ثمّ يستخرجون من هذا الخليط قواعد عامة»[3].

أمّا المستوى الثاني الذي تم الخلط فيه هو (المستوى الزّمني) حين شملت دراسة القدماء مراحل متعاقبة من تأريخ اللغة العربية؛ تبدأ من حوالي خمسين ومائة عام قبل الإسلام وتنتهي عند ما أسموه بعصر الاحتجاج؛ أي ما يقرب من ثلاثة قرون من تاريخ لغة العرب شملوها بدراسة واحدة، ولم يراعوا التّطوّر الطّبيعي، الذي يلحق أيّة لغة من اللغات، يقول تمام حسان: «تلك حقبة لا يمكن أن تظلّ اللغة فيها ثابتة على حالها؛ وإنّما المعقول أن تكون اللغة قد تطوّرت فيها من نواحي البنية والنّطق»[4].

ومجمل ما هدف إليه المحدَثون بنقدهم لمنهج القدماء هو:

-التخلص من تأثير نظرية العامل والاتجاه إلى الدّراسة الوصفية لعناصر الجملة.

-الفرار من العلل الزّائفة ومن الإغراق في التّأويل.

-طرح الإعرابين: التقديري والمحلي، وتقدير العوامل وإضمار المعمولات.

مفهوم المنهج العلمي في الدراسات اللغوية الغربية:

بعد العرض الموجز الذي قدّمناه عن الهجوم الذي تعرض له منهج النّحاة القدامى، نأتي الآن إلى الكلام عن مفهوم "المنهج العلمي" في دراسة اللغة، والذي سنتلمّسّه من الغربيين الذين نَظَّروا للمناهج العلمية، وجعلوا لسانيات القرن العشرين تقوم على «الدّراسة العلمية للغة»[5]؛ أي أنّها علم استقرائي موضوعي يقوم على الملاحظات، والفرضيات، والتجارب، ويقنّن نتائجه في صيغ مجرّدة أو رموز رياضية، إلاّ أنّ هذا التحديد للمنهج العلمي في دراسة اللغة أوجد مناهج متعدّدة لا تقوم على الوصف فقط؛ حيث نلحظ نوعين من المناهج اللسانية سيطرتا على الدّراسات اللغوية في القرن العشرين؛ **الأوّل:** المنهج الوصفي البنيوي؛ و**الثّاني** المنهج التحويلي التوليدي.

الأوّل يقوم على عدّة أسس؛ أهمّها[6]:

1-إعطاء الأولوية للغة المنطوقة؛ لأنّها الأصدق في الوصف، ومنه انصبّ الاهتمام على دراسة اللغات واللهجات المعاصرة.

2- تحديد فترة زمنية للظاهرة المدروسة، ويفضل أن تكون قصيرة.

3- تحديد بيئة معيّنة، أو مكان محدّد لدراسة الظّاهرة.

4- تحديد مستوى لغوي معيّن يدرسونه دون الخلط بينه وبين غيره.

5-وصف الظّواهر اللغوية كما هي موجودة؛ بغض النّظر عن الخطأ فيها والصّواب؛ وبدون طرح معايير تفرَض على المتكلّمين.

أمّا **الثاني** (وهو المنهج التوليدي التحويلي) فيقوم -كذلك- على عدّة أسس؛ أهمّها[7]:

1-أنّ العقل هو في ذاته مصدر كلّ تجربة ومعرفة، فالطفل يُولَد مزوّداً بمعرفة فطرية مجسّدة في جهاز اكتساب اللغة.

2-اتخاذ (قدرة المتكلّم) على توليد الجمل التي لم يكن سمعها من قبل، موضوعاً لهذا المنهج؛ ويدلّ مصطلح التّوليد (generation) على الجانب الإبداعي في اللغة.

3-اعتبار المعنى -في التحليل اللغوي- أمراً ضرورياً في شرح العلاقة بين الجمل التي تحمل نفس المعنى وتختلف في ظاهر تركيبها.

4- أنّ للجمل معنى ظاهراً (سطحياً) وهو الذي يُقال فعلاً، ومعنى مقصوداً (عميقاً) وهو الذي تكون العلاقات المعنوية فيه واضحة، وأنّ الذي ينّظم العلاقة بين المعنى المقصود (العميق) والمعنى الظّاهر (السّطحي) هو تلك القوانين التي تطبّق على الأولى، فتحوّلها إلى الثانية، وقد أطلق على هذه القوانين اسم (القواعد التّحويلية).

5-ضرورة التّمييز بين جانبين أساسيين في الدّراسة اللسانية؛ هما: معرفة "المتكلم/المستمع" المثالي، والأداء اللغوي الفعلي؛ وهذا ما فُصِّلَ فيهما تحت مصطلحي (الكفاءة، والأداء).

6- انطلاقاً من العناصر المتقدّمة فإنّ "تشومسكي" جعل من (الحدس والفرض) من الطّرق التي تساعد اللساني على التحليل.

ومن هذه العناصر يظهر لنا أنّ الفرق بين المنهج البنيوي الوصفي والمنهج التحويلي التوليدي؛ أنّ الأول يتّخذ من النّصوص اللغوية موضوعاً لدراسته؛ على حين اتخذ الثاني من قدرة المتكلّم على إنشاء الجمل موضوعاً له، هذا من حيث الموضوع، أمّا من حيث أسلوب الدّراسة والتحليل؛ فإنّ الأول يعتمد على وسائل الاستكشاف، على حين يؤمن التولديون بضرورة الحدس والتخمين، ثمّ إجراء الاختبار؛ لتقويم الفروض المتضاربة، أمّا من حيث الهدف، فإنّ البنيويين يحاولون بدراساتهم القيام بتصنيف عناصر اللغات

المدروسة، على حين جعل التوليديون تعيين القواعد النّحوية الكامنة وراء بناء الجملة هدفاً لهم.

بعد كلّ هذا العرض نتساءل: هل هناك منهج علمي واحد أم مناهج علمية متعددة لدراسة اللغة؟ وما هو المنهج العلمي الأصح؟ وهل وُفق النّحاة العرب المتقدّمون إلى منهج علمي سليم؟

لنفهم الجواب عن هذا سنحاول أن نربط بين مقولتين؛ أولاهما لأكبر لساني غربي، وثانيتهما لأكبر لغوي عربي يعتبر من مؤسّسي النّحو العربي، الأوّل هو نعوم تشومسكي (والذي لا يزال حيا) ومقولته هي أنّه عندما سئل حول منهجه أجاب: «ليس لي مناهج إطلاقا؛ ومنهج البحث الوحيد الذي اتّبعه هو أن أبذل طاقتي في النّظر في مشكلة صعبة معيّنة، وأن أحاول أن أجد بعض الأفكار عمّا يمكن أن يكون تفسيرا لها»[8].

هذا يذكرنا بمقولة الثاني وهو الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ) وذلك حين سئل عن أصول النّحو وعلله من أين أتى بها، هل اخترعها من عنده؟ أم أخذها عن العرب أبناء اللغة؟ فقال: إن مثلي ومثل اللغة العربية كمثل رجل دخل دارا محكمة البناء عجيبة النظام والأقسام، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شئ أعجبه قال إنما فعل باني الدار هذا لعلة كذا وكذا ولسبب كذا وكذا، وجائز أن يكون قد فعل ذلك لعلة أخرى، فإن أتيح لغيري علة لما عللته من النّحو هي أليق مما ذكرته فليأت بها.

هنا نلاحظ التشابه بين المقولتين رغم الفارق الزمني، ورغم التطور الكبير الذي شهده علم اللغة، وتقدّم مناهجه ووسائله، ومنه يظهر لنا أنّ النّحاة المتقدّمين ما جانبوا المنهج العلمي السليم في دراستهم للغة العربية وتقعيدها، وهو ما يتأكّد لنا من خلال تتبّع ملامح من المنهج العلمي في أول مدونة نحوية وصلتنا وهي "كتاب سيبويه"؛ هذا السِّفر العظيم الذي –وبدون مبالغة– بدأ به النّحو العربيّ وانتهى به.

ملامح المنهج العلمي عند النّحاة العرب المتقدّمين:

يمكن أن نجمل هذه الملامح في النّقاط التالية:

1- **الاعتماد على اللغة المنطوقة:** ولا أدلّ على ذلك ممّا رُوي من أنّ الكسائي (ت182هـ) سأل الخليلَ يوماً، وكان يلازم مجلسه ويأخذ عنه: «من أين علمك هذا؟»

قال له الخليل: «من بوادي الحجاز ونجد وتهامة»، فخرج الكسائي إلى هذه البوادي، ومكث فيها مدّة طويلة، كان فيها يسمع ويشافه ويدوّن، حتّى أنفد -كما قيل- في التّدوين خمس عشرة قنينة من الحبر، غير ما كان حفظ[9].

وقد اهتمّ سيبويه (ت180هـ) بالكلام المسموع جرياً على طريقة أساتذته، ومنهجهم في وصف اللغة، وهو في ذلك يتّبع طريق الاتّصال المباشر بالمتكلمين، والسّماع من أفواههم، وكثيرا ما يشترط في هؤلاء المتكلمين الفصاحة والثقة؛ فيقول مثلا: «وسمعنا من العرب من يقول ممن يوثق به» «وممّا جاء في النّصب أنّا سمعنا من يُوثق بعربيته يقول» «وسمعتُ من أثق من العرب يقول»[10]، وقد يكتفي بذكر السّماع عن العرب من غير أن يقرن ذلك بالفصاحة والثقة؛ مثل: «ومن ذلك قول العرب» «وسمعنا بعض العرب» «وكلّ هذا على ما سمعنا العربَ تتكلّم به»[11].

ولعلّ في تعريف ابن جني (ت392هـ) للغة، خير دليل على اعتماد القدماء على اللغة المنطوقة؛ إذ عرّفها بأنّها «أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم»[12]؛ فقصر اللغة على الأصوات وأخرج الكتابة من التعريف؛ وهو دليل على أنّ القدماء كانوا يدرسون اللغة باعتبارها لغة منطوقة قائمة على الأصوات.

2-**الاهتمام بالوصف الصّوتي للغة العربية:** فمن الثّابت أنّ الدّرس الصّوتي عند العرب؛ هو أقدم العلوم العربية، من حيث الواقع العملي؛ ذلك أنّه انبنى على القراءات القرآنية، وقد كان علماء النّحو القدماء أئمة في القراءات؛ كأبي عمرو بن العلاء (ت154هـ) والكسائي (ت182هـ)، وقِراءة القرآن الكريم هي التي جعلت علماء العربية القدماء يتأمّلون أصوات اللغة ويلاحظونها تلك الملاحظة التي لا تبتعد كثيراً عمّا يقرّره المحدَثون؛ ولهذا يرى الكثيرون[13] أنّ الدّرس الصّوتي عند العرب من أَأْصَل الجوانب التي تناولوا فيها دراسة اللغة، ومن أقربها إلى المنهج العلميّ.

ولا ننسى أنّ الخليل بن أحمد (ت170هـ) هو أوّل من وضع تصنيفاً للأصوات حسب "موضع النّطق" أو كما سمّاها هو (الأحياز والمخارج)؛ ومع سيبويه (ت180هـ) بدت دراسة الأصوات أوفى وأكثر دقّة؛ حيث نرى تصنيفه لها حسب المخارج، وحسب ما يُعرَف الآن "بوضع الأوتار الصّوتية" ممّا سمّاه سيبويه بالجهر والهمس، ثمّ حسب طريقة

النّطق؛ يقول: «هذا باب عدد حروف العربية ومخارجها ومهموسها ومجهورها، وأحوال مجهورِها ومهموسِها، واختلافِها...»[14].

3-تحديد البيئة الزّمانية والمكانية: ذكرنا سابقا أنّ من أسس المنهج الوصفي تحديد بيئة (زمانية ومكانية) لدراسة عيّنة لغوية ما؛ وهذا نفسه ما حاول النّحاة القدامى الالتزام به؛ فهم لم يسمحوا بأخذ اللغة إلاّ المستعملة في بوادي نجد والحجاز وتهامة، ومن قبائل مخصوصة؛ لم تتأثر بحياة الحضر أو بالاتصال ببيئات لغوية أخرى.

وهناك شيء يجب ذكره؛ وهو أنّ الأساس الذي ترتكز عليه قضية الاستشهاد والاحتجاج -كما يظهر في كتاب سيبويه- هو "الفصاحة والسّليقة اللغوية" والاطّراد والانسجام مع الغالب من كلام العرب المسموع، بغض النظر عن القبيلة؛ والدّليل أنّ سيبويه قد أخذ اللغة والشواهد الشعرية بكثرة عن قبائل نَصَّ الفارابي[15] (ت339هـ) على عدم استشهاد العلماء العرب بكلامهم؛ مثل: قضاعة، وثقيف، وبكر، وتغلب، وإياد، وغسان، وكان يومئ لهذه القبائل بقوله: وقد سمعناهم يقولون[16]، أو أنّه سمع بعض العرب[17]، أو حدّثنا مَن يُوثَق به أنّ بعض العرب[18]، واستشهد بأبيات حار العلماء المعاصرين له في نسبتها، وهي التي تعرف بالأبيات الخمسين.

4- وإذا كان المنهج العلميّ السّليم يتطلّب مجموعة من الإجراءات المنهجية والصّفات البحثية؛ مثل: الاستقراء، والتصنيف، والموضوعية... إلخ[19]؛ فإنّ المتأمّل في منهج القدماء -من خلال كتاب سيبويه- يجد هذه الإجراءات ساطعة عندهم، بإقرار كثير من الباحثين؛ فقد انطلق **استقراء** النّحاة الأوائل من مادة لغوية محدّدة بزمان ومكان معينين؛ تجمع لغات عدّة قبائل؛ والتي ارتأوا أنّها تمثّل العربية الفصيحة.

كما نجد سيبويه قد **صنَّفَ** المادة اللغوية وأحسن ذلك من أوّل الكتاب إلى نهايته؛ فقد قسّمه إلى قسمين؛ القسم الأوّل: في أبواب النّحو، والقسم الثاني في أبواب الصّرف والأصوات، أمّا **الموضوعية**؛ وهي أهمّ سمة يجب أن يتصف بها الباحث في مجال الدّراسة العلميّة؛ فتظهر -عند سيبويه- حين أقصى ذاتيته وجعل من خبرة شيوخه وأقوال العرب وأشعارهم شواهد على ما يقررّه من قواعد، كما لا يظهر له أيّ تعصب لآراء

جماعته البصريين؛ فيورد آراء الجميع بمن فيهم الكوفيين[20]، مع استخدام الرّوح النّقدية التي نجدها حينما يعارض أستاذه الخليل إذا تبيّن له عدم دقته[21]،

بعد هذا القول الموجز عن ملامح المنهج العلمي عند القدماء، سنحاول فيما يأتي أن نوضح ونتلمس مفهوم المنهج العلمي عند المحدثين العرب، الذين يأتي على رأسهم تمام حسان صاحب «أجرأ محاولة شاملة لإعادة ترتيب الأفكار اللغوية، تجري بعد سيبويه وعبد القاهر»[22] على حدّ قوله.

تمام حسان والمنهج العلمي في أبحاثه النّحوية:

افتتح تمام حسان أوّل كتاب له[23] بمقدّمة حملت عنوان (الحاجة إلى منهج للغة) وبيّن فيه المنهج العلمي الصّحيح لدراسة العربية الفصحى، وقد تلته مؤلّفات أخرى تسير في نفس الغرض، وسنحاول من خلالها تلمس أهمّ ملامح المنهج الذي دعا إليه؛ والتي نجملها في النقاط التالية:

1-العمل على تخليص الدراسات اللغوية من منهج القدماء؛ بدعوى أنّه أمشاج من الأفكار غير المتناسبة يأتي بعضها من المنطق، وبعضها من الميتافيزيقا والأساطير، وبعضها الآخر من الدّين وغيره، وقد رأى أنّ المنطق أثّر في النّحو العربي من جانبين اثنين؛ أوّلهما جانب المقولات وتطبيقها في التّفكير النّحوي العام، وثانيها الأقيسة والتّعليلات في المسائل النّحوية الخاصة[24].

2- الدّعوة إلى بناء الدّراسات اللغوية العربية على منهج له فلسفته وتجاربه؛ يُرْضي الرّوح العلمية، وهذا المنهج على الرّغم من أنّ هيكله غربي فسيتمّ تطبيقه على اللغة العربية الفصحى أوّلاً وقبل كلّ شيء؛ وحين يقتضي المقام يتم الاستعانة ببعض اللهجات[25]؛ وقد تبنى تمام -كأغلب المحدثين العرب- منهج اللسانيات الوصفية؛ الذي عدّه الأكثر موضوعية، والأقرب إلى الدّقة والعلمية؛ على حد قوله[26].

3- إذا كانت البنيوية الوصفية الغربية؛ قد تفرعت لاتجاهات لسانية عدة؛ تبعا لما تأثّرت به، من مذاهب فلسفية اجتماعية (كما هو الحال مع وصفية دي سوسير)؛ وأخرى نفسية سلوكية (كما هو الحال مع بنيوية بلومفيلد) يرى تمام حسان أنّه في كلا الحالتين تستعير اللغة طريقتها من منهج غريب عنها مع التضحية باستقلالها في المنهج، فاللغة

مجموعة من النظم الوضعية الاجتماعية ذات أقسام من الأنماط والعلامات، من الممكن أن تستقل بمنهجها عن مناهج العلوم الأخرى؛ ويأخذ منهجها –في اعتباره– الشّكل والوظيفة باعتبارهما أساسين من أسس بنائه[27].

4– يقصد تمام حسان بالشّكل والوظيفة؛ أنّنا حين نقول أنّ المعنى الوظيفي لكلمة "ضَرَبَ" أنّها فعل ماض؛ نقصد أنّها تقوم في السّياق بدور الفعل الماضي، وتؤدّي وظيفته النّحوية الخاصة به؛ والصّلة وثيقة جداً بين الإعراب وبين المعنى الوظيفي؛ فيكفي أن تَعْلَمَ وظيفة الكلمة في السّياق لتدّعي أنّك أعربتها إعراباً صحيحاً، وتأتي وظيفة الكلمة من صيغتها ووضْعها؛ لا من دلالتها على مفهومها اللغوي؛ ولذلك يستطيع المرء أن يعرب كلمات لا معنى لها؛ ولكنّها مصوغة على شروط اللغة العربية، ومرصوفة على غرار تراكيبها[28].

وقد أقام تمام نظريته على مفهوم المعنى، الذي قسّمه على ثلاثة معان فرعية؛ أحدها المعنى الوظيفي؛ وهو وظيفة الجزء التّحليلي في النظام، والثّاني المعنى المعجمي للكلمة، والثّالث المعنى الاجتماعي أو معنى المقام[29]؛ ولهذا كلّه اهتمّ بالمعنى، وجعله الموضوع الأساس لكتابه (اللغة العربية معناها ومبناها).

5– يرى تمام أنّ المنهج الوصفي يرتبط بجملة من الإجراءات المنهجية؛ مثل: الاستقراء، والملاحظة، والتقسيم، والتجريد؛ وهي إجراءات عدّها "تمام حسان" أُسُساً يقوم عليها كلّ نشاط علميّ أيّا كان نوعه[30]؛ ويعتقد أنّ الاستقراء حلّ محل القياس في البحث العلمي منذ قرون عديدة.

هذه باختصار أهمّ ملامح منهج البحث اللغويّ السّليم، الذي دعا إليه تمام حسان، وبرز في مؤلّفاته، واسِماً إيّاه بصفة "العلمية"، ومنتقداً في نفس الوقت منهج القدماء بصفة عامة؛ لأنّ منهجهم قام على أمور ليست من العلم في شيء؛ كالتعليل، والعامل، والتقدير، والخروج من شيء ملاحظ إلى شيء مجرّد...إلخ؛ وقد ردّ الفاسي الفهري هذه الادّعاءات؛ معتبراً إيّاها محض ادعاء للعلمية والمنهجية؛ بدون أدلة؛ نتيجة للتّصوّر الخاطئ للعلم، ولفرضياته، ولتطبيق نظرياته؛ كما أنّ تمام حسّان وأمثاله، لا يدلوننا على مرجع نسترشد به في موضوع ادّعائهم؛ يقول الفاسي الفهري: «نحن لا نعرف هذا؛ بل

نعرف عكسه، ونعرف أنّ النّظرية العلمية يجب أن ترقى إلى مستوى تفسيري، ولا تكتفي بالملاحظة الخارجية في جميع الأحوال؛ بل تبحث في الكيف وفيما وراء الكيف، فأين هذا "العلم" المعروف كما يعرّفه تمام؟»[31].

خاتمـــــــة: من خلال ما تناولناه نستخلص مجموعة من النتائج وهي:

1-المنهج العلمي السّليم في الدراسات اللغوية، لا يزال محل جدل وتطوّر؛ عند أصحابه الذين ابتكروا التّنظير له منذ قرون -وهم الغربيون- وهذا ما يؤكّده الوقوف على مناهج مدارسهم اللسانية المختلفة؛ وهذا ما نستشفه من كلام تشومسكي -السابق الذكر- عندما سئل عن منهجه فأجاب: ليس لي مناهج إطلاقا؛ ومنهج البحث الوحيد الذي اتّبعه هو أن أبذل طاقتي في النّظر في مشكلة صعبة معيّنة، وأن أحاول أن أجد بعض الأفكار عمّا يمكن أن يكون تفسيرا لها.

2-الدّراسات النّحوية العربية القديمة بلغت مستوى علميّ رفيع، ونضج فكري مستنير؛ فقد جمعت بين النّقل والعقل والوصف والتّحويل، وهناك مظاهر عديدة تناولوها بالدّراسة المستفيضة لم يتطرق إليها علماء الغرب إلاّ في القرن العشرين.

3-النّحو العربيّ المتقدّم (مع الخليل وسيبويه، وحتى مع ابن جني والجرجاني) يختلف عن النّحو المتأخر؛ بعد القرن الرّابع خصوصاً؛ وهو في عمومه نحو علميّ وصفيّ؛ باعتراف تمام حسّان في حدّ ذاته؛ كما أنّه يختلف عن "النّحو التّقليدي الأوربي" القائم على أفكار أرسطو؛ وأيّ محاولة تهدف إلى اسقاط انتقادات الأوربيين له، على النّحو العربيّ، محاولة محكومٌ على صاحبها بالتّخبط، والجهل بحقيقة النّحو العربيّ.

4-لم ينجح المحدثون -ومنهم تمام حسان- بخلق نظرية نحوية جديدة، أو حتى تجديد القديمة وتجاوزها؛ ذلك أنّهم احتفظوا بمعطيات القدماء ممّا جعلهم -في كثير من الأحيان- سجناء لمناهج القدماء؛ كما تخبّطَ بعضهم بين قراءة التراث النّحوي العربي وبين وصف اللغة العربية من جهة، وبين النقد السلبي والعجز عن اقتراح تصوّر جديد للظواهر اللغوية من جهة ثانية.

5-يبقى منهج سيبويه في كتابه محتفظاً بتميّزه بالعلمية، ويبقى كتابه البحر الذي يصعب ركوبه وتخطيه على كلّ هاوٍ لعلوم اللغة العربية، كما تبقى محاولة تمام حسّان

أكبر محاولة في القرن العشرين استطاعت أن تحقّق إعجاباً لدى كثير من دارسي علوم اللغة العربية وباحثيها.

الهوامش:

[1] – ينظر مزيدا حول هذا في: نشأة الدّرس اللساني العربي الحديث، فاطمة بكوش، إيتراك للنشر والتوزيع/القاهرة، ط2004/1م: ص 62-77.

[2] – اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب/القاهرة، ط2000/4م: 12.

[3] – العربية ولهجاتها، معهد البحوث والدّراسات العربية، القاهرة/1986م: 24.

[4] – اللغة بين المعيارية والوصفية: 25.

[5] – اللسانيات النّشأة والتطور، أحمد مومن، ديوان المطبوعات الجامعية/الجزائر، ط2005/2: صv (المقدمة).

[6] – ينظر: فصول في الدّرس اللغوي بين القدماء والمحدثين، نادية النجار، دار الوفاء للطباعة والنّشر، دط2006م: ص 130-132.

[7] – ينظر: اللسانيات النّشأة والتطور، أحمد مومن: 204-214 و237، والمدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، لرمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي/القاهرة، ط1997/3م-1417هـ: ص190.

[8] – اللغة ومشكلات المعرفة، تشومسكي، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، دار توبقال/الدار البيضاء، ط1990/1: ص161 – 162.

[9] – ينظر: إنباه الرّواة على أنباه النّحاة، للقفطي، تح: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر/القاهرة: ص 258/2.

[10]– كتاب سيبويه، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي/القاهرة، ط1408/3هـ-1988م: 155/1،53، 230، وينظر أيضاً: 309/1، 319، 423.

[11]– الكتاب: 244/1، 309، 327، وينظر أيضا: 315/1.

[12]– الخصائص، لابن جني، تح: محمد علي النجار، المكتبة العلمية دط، دت: 33/1.

[13]– ينظر: فقه اللغة في الكتب العربية، لعبده الراجحي، دار النهضة العربية/بيروت: ص129.

[14]– كتاب سيبويه: 431/4.

[15]– له نص مشهور حدد فيه القبائل المتشهد بكلامها، ينظر هذا النّص في: الاقتراح في علم أصول النحو للسيوطي، ضبط وتعليق عبد الحكيم عطية، وعلاء الدين عطية، دار البيروتي، ط2006/2م: صفحة 47.

[16]– الكتاب: 160/1.

[17]– المصدر نفسه: 255/1.

[18]– المصدر نفسه: 255/1، 364.

[19]– ينظر: نشأة الدّرس اللساني العربي العديث، فاطمة بكوش: 86–88.

[20]– ينظر الكتاب: 399/2، 54/3، 477/4،409.

[21]– ينظر المصدر نفسه: 16/3.

[22] – اللغة العربية معناها ومبناها، تمم حسان، دار الثقافة/المغرب1994م: ص 10.

[23]– وهو كتاب "مناهج البحث في اللغة" ط1955/1م، ينظر الصفحة 01 منه.

[24]– ينظر: مناهج البحث في اللغة: 05،17–19. واللغة بين المعيارية والوصفية:11.

[25]– مناهج البحث في اللغة، تمام: 05، واللغة العربية معناها ومبناها: 07 و09.

[26]– ينظر: اللغة بين المعيارية والوصفية: 50، و اللغة العربية معناها ومبناها: 10 و13–14.

[27]– ينظر: مناهج البحث في اللغة، تمام: 29.

[28]– ينظر: المصدر نفسه: 192–193، وكذلك: اللغة العربية معناها ومبناها: 182–183.

[29]– ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: 28–29.

[30]– ينظر: اللغة بين المعيارية والوصفية: 149، ومناهج البحث في اللغة: 201–202.

[31]– اللسانيات واللغة العربية، لعبد القادر الفاسي الفهري، دار توبقال للنشر/المغرب، ط1993/3م: 58/1.